المبحث الثّالث

تاريخ علوم الحديث

تقدَّم معنا أنه يُقصَد بعلوم الحديث مجموعة القواعد والقوانين التي يتوصَّل من خلالها إلى تمييز مقبول الحديث من مردوده، ومعرفة آداب روايته، وكيفية فهمه، وقد مرَّت بعدّة مراحل وفق ما يلي:

المرحلة الأولى – دور النشوء:

نشأ هذا العلم مع نشوء رواية الحديث في عصر الصحابة رضوان الله عليهم، إلى نهاية القرن الهجري الأول، فقد راعى الصَّحابة وكبار التابعين أُصول الرواية وقواعدها التي تشكّل منها هذا العلم فيما بعد، وذلك في أثناء نقلهم وروايتهم لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمن تلك القواعد التي التزمت عند رواية الحديث عند الصحابة والتابعين رضي الله عنهم:

١ – **تقليل الرِّواية** عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خشية الخطأ أو النسيان أو الوهم

٢ – **التثبت في الرواية عند التلقّي وعند الأداء:**

وكان أوّل من احتاط في قبول الأخبار سيدنا أبا بكر الصّدّيق رضي الله عنه، وقد سار على نهجه في التثبّت الخليفة من بعده سيدنا عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، قال الإمام شمس الدين الذهبي في ترجمة عمر رضي الله عنه: «وهو الذي سنَّ للمحدّثين التَّثبُّت في النقل، وربما كان يتوقف في خبر الواحد إذا ارتاب، فروى الحريري عن أبي نضرة عن أبي سعيدٍ أنَّ أبا موسى سلَّم على عمر من وراء الباب ثلاث مرَّات، فلم يُؤذن له فرجع، فأرسل عمر في أثره، فقال: لِمَ

رجعت؟ قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلَّم يقول: «إذا سلَّمَ أحدكم ثلاثًا فلم يُجب فليرجعْ» قال: لتأتينّي على ذلك ببيِّنَةٍ أو لأَفعلنَّ بك فجاءنا أبو موسى ممتقعًا لونه ونحن جلوس ، فقلنا: ما شأنُك؟ فأخبرنا، وقال: فهل سمع أحدٌ منكم؟ فقلنا: نعم، كلّنا سمِعه فأرسَلوا معَه رجلاً منهم حتى أتى عمرَ فأخبره».

وقد أوضح عمر رضي الله عنه الدافع وراء صنيعه هذه بقوله: (إنّي لم أتَّهمك ولكن أحببتُ أن أتثبَّت).

٣ ـ نقد المرويات: ويعدُّ سيدنا عمر بن الخطّاب رضي الله عنه رائدًا في ذلك، فقد سمِع من فاطمةَ بنت قيسٍ رضي الله عنها أنَّ زوجها طلَّقها ثلاثًا، فلم يجعل لها رسول الله صلّى الله عليه وسلم سكنى، ولا نفقة، قال عمَرُ: لا نترُكُ كتابَ اللهِ وسُنَّة نبيِّنا صلى اللهُ عليه وسلَّم لِقولِ امرأةٍ لا ندري لعلها حفِظت أو نسيت، لها السكنى، والنفقة، قال الله عزَّ وجل: {لا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ}.

المرحلة الثانية- ابتداء تدوين مفردات من هذا العلم:

حافظ الصحابة ومن بعدهم من كبار التَّابعين على هذه القواعد والقوانين في أثناء تحمُّلهم للحديث، وفي أثناء أدائهم له، وإن لم تكن هذه القواعد قد دوِّنت بعد، إذ إنَّ أوَّل قواعد هذا الفنِّ المكتوبةِ ظهرت في طيّاتِ كتاب «الرسالة» للإمام محمد بن إدريس الشافعي (ت: ٢٠٤ هـ) حيث تكلَّم عن: قبول حديث الواحد والمرأة، وصفة من تقبَّل روايته، وقبول العنعنة من غير المدلِّس، وقبول رواية المدلِّس إن صرّح بالتحديث، وردَّ خبر من كثر غلطه... إلخ.

كما جاءت بعض قواعد هذا الفن مدوّنة في أثناء كتب الرِّواية، كتلك التي جاءت في تراجم بعض أبواب صحيح الإمام محمد بن إسماعيل البخاري (ت: ٢٥٦ هـ) حيث تقرأ في (كتاب العلم) التراجم التالية: باب قول المحدث: «حدّثنا وأخبرَنا»، باب ما يُذكر في المناولة، باب متى يصحُّ سماع الصغير؟ باب كتابة العلم... وغيرها.

كما أشار رحمه الله إلى بعض مسائل هذا الفن في مواضع متعددة من صحيحه كمسألة؛ زيادة الثقة، والمتابعات، وبيان غريب بعض الألفاظ، واختلافات الروايات.

وأما الإمام مسلم بن الحجّاج (ت:٢٦١ هـ) فقد أورد في مقدمة صحيحه جملة من المسائل، منها: تقسيم حملة الأخبار

إلى طبقات، وكيفية معرفة المنكر في حديث المحدّث، وزيادة الثِّقة، وآداب الرواية، وجواز الجرح، وأنَّه ليس من الغيبة، والحديث المعنعن وصحَّةِ الاحتجاج به.

كما تناثرت بعض المسائل في ثنايا سُنَنِ الإمام محمد بن عيسى الترمذي (ت: ٢٧٩ هـ)، إضافة إلى ما دوَّنه في «العلل الصغير» الملحق بالسُّنَنِ، وما كتبه الإمام أبو داود سليمان بن الأشعث السجستانيّ (ت:٢٧٥ هـ) في رسالته إلى أهل مكة المعرفة بكتابة «السُّنَن».

المرحلة الثّالثة- ظهور مصنَّفات دوّنت بعض الأنواع المفردة:

وتمتدُّ من بداية القرن الثّاني إلى بداية القرن الهجريّ الثّالث إلى منتصف القرن الرّابع الهجريّ:

فقد ظهر في هذه المرحلة بعض الكتب المفردة في أنواع علوم الحديث، ككتب في علم غريب الحديث، وكتب في علم مختلف الحديث ومشكله، وكتب في علم الناسخ والمنسوخ، وكتب في معرفة العلل، ... مثل: غريب الحديث للقاسم بن سلّام (ت: ٢٢٤ هـ)، والناسخ والمنسوخ لأبي بكر بن الأثرم (ت: ٢٦١ هـ)، واختلاف الحديث للإمام محمد بن إدريس الشافعيّ (ت:٢٠٤ هـ)، والعلل للإمام عليّ بن المدينيّ (ت: ٢٣٤ هـ).

وهذه القائمة غيضٌ من فيضٍ يصعب حصره من الكتب التي غُنيت بعلوم تدوين الحديث المفردة حيث: «أصبح التصنيف أمرًا متَّبعًا لا ينفكُّ عنه إمامٌ في الحديث».

المرحلة الرابعة- ظهور المؤلَّفات الجامعة لأنواع علوم الحديث:

وتبدأ من منتصف القرن الرّابع الهجريّ، وتمتدُّ إلى منتصف القرن السابع الهجريّ تقريبًا.

ففي هذه المرحلة أصبحت علوم الحديث ذات شخصيَّة اعتباريّة، لها معالمها المتميزة عن بقية العلوم والفنون التي عرفها المسلمون، ولعلَّ أوَّل من جاول جمع مباحث علوم الحديث بفنونها المتعدّدة، القاضي أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن الرَّامَهرمُزِي (ت: ٣٦٠ هـ) في كتابه الذي سمّاه «المحدّث الفاصل بين الرّاوي والواعي» تكلَّم فيه عن: آداب الرِّواية، وطُرق التَّحمُّل والأداء ... وغيرها.

ثمَّ تلاه في هذا المضمار الإمام أبو عبد الله محمَّد بن عبد الله ابن البيِّع المعروف بالحاكم النِّيساوري (ت: ٤٠٥ هـ) في كتابه «معرفة علوم الحديث» حيث نوَّع هذا الفن إلى اثنين وخمسين نوعًا.

وجاء من بعدهم الإمام الخطيب أحمد بن عليّ البغداديّ (ت: ٤٦٣ هـ) فألَّف فيه أغلب أنواع الحديث كُتُبًا مفردة، ووضع أيضًا كتابين مستوعبين:

خصَّص أحدهما لقوانين الرِّواية، وقواعدها، وأصولها العامَّة، بعنوان: «الكفاية في قوانين الرواية».

وخصَّص الثّاني منهما في آداب الرِّواية وتدوين الحديث وحفظه وتوثيقه، والرحلة في طَلَبه، بعنوان: «الجامع لأخلاق الرَّاوي وآداب السامع».

وعلى كتب الخطيب أصبح لعويل المشتغلين والكاتبين في علوم الحديث، حتى قال ابن نقطة: «كلٌّ من أنصف عَلِمَ أنَّ المحدِّثين بعد الخطيب عيالٌ على كتبه».

المرحلة الخامسة-دور الاكتمال:

ويستمر من منتصف القرن السَّابع إلى بداية القرن العاشر الهجري تقريبًا:

فقد تمَ في هه المرحلة جمع شتات مقاصد علوم الحديث وضمُّ متفرِّقاتها، والعناية بصياغة قواعده وفق الحدود المنطقية، وقد كان رائد هذه المرحلة الإمام ابن الصَّلاح أبا عمرو تقيّ الدين بن عبد الرحمن الشّهرزوري نزيل دمشق (ت: ٦٤٣ هـ)، فقد قام بإملاء كتابٍ جامعٍ لتصانيف الخطيب البغداديّ ومن سبقه، فهذَّب فنون الحديث، فحوى كتابه ما تفرَّق في غيره.

وقد كان كتاب ابن الصَّلاح تحوُّلًا جديدًا في هذا الفنِّ، فقد قسم علوم الحديث إلى خمسة وستين نوعًا تناولت جوانب هذا العلم كافَّة، قدَّمها في شكل مصطلحات وتعاريف محرَّرة منظمة ودقيقة غالبًا.

ومن ثمَّ عكف عليه العلماء شرحًا ودرسًا وتدريسًا ونظمًا واختصارًا ومعارضة وانتصارًا، وإليك أمثلة من هذه الجهود:

– الإمام النَّووي يحيى بن شرف (ت: ٦٧٦ هـ) بكتابه: «إرشاد طلّاب الحقائق» ثمَّ اختصر هذا الكتاب بكتابه: «التَّقريب والتيسير لمعرفة سُنَن البشير النَّذير».

– بدر الدِّين بن جَماعة، محمد بن إبراهيم بن سعد الله الكناني (ت: ٧٣٣ هـ)، وله «المنهل الرّويّ في علوم الحديث النَّبويَ» لخَّصه من كتاب ابن الصَّلاح وغاير في ترتيبه.

– ابن كثير: عماد الدِّين إسماعيل بن عمر الدمشقيّ (ت:٧٧٤ هـ) وله «اختصار علم الحديث».

– بدر الدين الزّركشي: محمد بن قادر الشّافعي (ت: ٧٩٤ هـ) في «النُّكت على ابن الصَّلاح».

– الزّين العراقي: عبد الرَّحيم بن الحسين (ن: ٨٠٦ هـ) وله: « النُّكت على ابن الصَّلاح» أو «التَّقييد والإيضاح لما أُطلق وأُغلق من كتاب ابن الصَّلاح».

– ابن حَجَر: أحمد بن عليّ العسقلانيّ (ت: ٨٥٢ هـ) وله: «الإفصاح بتكميل النُّكت على ابن الصَّلاح».

وغيرهم.

وقد نظمه كلٌّ من:

- زين الدين العراقي :عبد الرحيم بن الحسين (ت:٨٠٦ هـ)في ألفيّتّة المشهورة.
- جلال الدين عبدالرحمن السيوطي(ت:٩١١ هـ) في ألفيّتة المشهورة بعنوان: «نظم الدّرر في علم الأثر».

وجلُّ الذين كتبوا بعد ابن الصلاح ساروا على سيره في الترتيب، ومنهم من خالفه في طريقة التصنيف والتبويب، كابن جماعة (ت:٧٣٣هـ) في «المنهل الرويّ» وابن حجر(ت:٨٥٢هـ) في متن " نخبة الفكر"الذي شرحه في«نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر».

المرحلة السادسة – وتمتد من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر الهجري، وقد اتسمت هذه المرحلة بالجمود والركود؛ فقد اكتفى معظم المشتغلين هذا الفن بمتابعة من سبقهم في المرحلة الخامسة، فقاموا بشرح كتبهم أو التعليق عليها أو الوضع الحواشي وكان محور اهتمامهم مركّز - بالدرجة الاولى - على (نخبة الفكر) وشرحها

لابن حجر، وعلى كتاب ابن صلاح ثانيا، فلم نشهد في هذا المرحلة تحديدا في المنهج التصنيف أو طريقة التأليف.

المرحلة السابعة- وتبدأ من مطلع القرن الرابع عشر الهجري، فقد نهض أهل العلم فأعطوا دفعًا جديدا إلى هذا العلم اقتضته عوامل منها:

١ – ظهورالمنهج الأكاديمي المعاصر في تقعيد العلوم والتأليف فيها، إذا كثرت الجامعات والكلّيّات الشرعيّة، ومن ثمّ كان من الواجب تقديم علم المصطلح الحديث بقوالب جديدة واضحة.

٢- الشبهات الكثيرة التي بدأت تلقي بظلالها على الحديث وعلومه من قبل بعض المستشرقين وأتباعهم من المستغربين، مما اقتضى أن تتضمن المصنفات المعاصرة في هذا الفن أبحاثًا جديدة في كشف الشّبهات والردّ عليها، ودفع الافتراءات والأكاذيب.

ومن مصنفات هذه المرحلة:

١- توجيه النظر الى علوم الأثر : للشيخ طاهر الجزائري (ت:١٣٣٨ هـ)

٢- قواعد التحديث : للشيخ محمد جمال الدين القاسمي(ت:١٣٣٢ هـ)

وقد كانا قدوة للكثير من الكاتبين المعاصرين في هذا الفن ممن أتى بعدهما.

٣- المنهج الحديث في علوم الحديث : للدكتور محمد السّماحي رحمه الله .

٤- منهج النقد في علوم الحديث : للأستاذ الدكتور نور الدين عتر حفظه الله.

وقد كان لهما الفضل في ابتكار ما يمكن تسميته «الطّريقة المنهجية» في التأليف في هذا العلم، إذ قسما علوم الحديث إلى أقسام، بين أفراد كل قسم من هذه الأقسام قاسم مشترك، فقسمٌ في علوم الرواة، وقسم في علوم الرّواية، وقسم في أنواع الحديث من حيث القبول والردّ، وقسم في علوم المتن..وهكذا.

هذا ولا ننسى في هذا المقام المؤلفات القيمة النافعة التي قام بتأليفها أساتذة أكارم، منها:

- «علوم الحديث ومصطلحه» للدكتور الشّهيد صبحي الصّالح رحمه الله.
- «أصول الحديث: علومه ومصطلحه» للأستاذ الدكتور محمد عجاج الخطيب حفظه الله.
- "الوسيط في علوم الحديث" للأستاذ الدكتور الشيخ محمد محمد أبو شهبة رحمه الله .
- «لمحات في اصول الحديث» للأستاذ الدكتور محمد أديب الصّالح حفظه الله...

وغيرهم.